التوثيق اللغوي في مباحث المفسرين

(الجواهر الحسان لعبد الرحمن الثعالبي الجزائري نموذجا)

د. السعيد بوخالفة*

يحتل التوثيق في مباحث المفسرين جانبا بارزا في مناهجهم، وأسلوبا شاملا إذ حرصوا على تثبيت نظراتهم، وتأييد توجيهاتهم، بوسائل متعددة، توخوا فيها صحة التفسير، ووضوح الوجه ودقته.

لقد أرادوا أن يظهروا للناس معاني القرآن، ويكشفوا عن وجوه الأدوات فلجأوا إلى الاستعانة بعناصر التركيب اللغوي، وما تضمنه من جوانب نحوية ولغوية واستعانوا بالأخبار والأحداث والقياس والتراكيب المماثلة، من نصوص العربية الأخرى، وبأراء العلماء الآخرين، وحاولوا أن يخرجوا ذلك في ثوب متجانس، عله يقع في النفوس موقع الإقناع والرضى والإمتاع.

ولكن اعتمادهم على هذه الأساليب كان متفاوتا، ويختلف من مفسر إلى آخر، كما يختلف في طبيعته، إذ نستطيع أن نميز فيه بوضوح بين اتجاهين: اتجاه احتجاجي عند المفسرين النحاة المتقدمين واتجاه توضيحي لدى اللاحقين الذي ترسموا خطى الأوائل وتابعوا معظم أقوالهم، ومنهم الثعالبي في تفسيره "الجواهر الحسان" حيث لجأ إلى توثيق المادة اللغوية بجملة من الشواهد، ونظرا لما تكتسيه هذه العملية من أهمية وفائدة وجدنا الثعالبي أولاها عناية، إذ وثق معاني الألفاظ التي تناولها بالشرح والتفسير، بالشواهد

---

* أستاذ مساعد مكلف بالدروس بجامعة الحاج لخضر باتنة.

من القرآن الكريم وقراءاته والحديث النبوي الشريف. وأقوال العلماء. والفصحاء. ولا غرابة في ذلك فقد ألحق تفسيره بمعجم حوى الألفاظ الغريبة بغية الرجوع إليها عند الحاجة. فجاءت ألفاظه في غالب الأحيان مشروحة وموثقة وللوقوف على المنهج الذي سلكه المفسر في "الجواهر الحسان" وهل كان فيه مجددا أم ناقلا اقتضت الضرورة الرجوع إلى كتب التفسير المختلفة لاستجلاء ذلك. وإليك بيان على هذه الشواهد.

أ ـ التوثيق بالقرآن الكريم وقراءاته:

القرآن الكريم وقراءاته حقيقة واحدة لا يمكن فصلها. والمفسرون كانوا يدركون هذه الحقيقة ببساطة عندما اقدموا على تفسير القرآن الكريم فكان هدفهم بيان النصوص القرآنية بمختلف مستوياتها. والاستعانة على معرفتها بالنصوص الأخرى.

لقد كان القرآن الكريم وقراءاته المادة الرئيسية لهذا الاستدلال مما جعله غاية البحث وأداته في آن واحد. غير أن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل تعداه عند النحويين المتقدمين كالفراء. وأبي عبيدة والأخفش إلى الاحتجاج للظواهر اللغوية التي أثارها بوحي النصوص القرآنية. فكانت هذه لنصوص حجة ومصدرا أساسيا من المصادر اللغوية التي اعتمد عليها في صناعة علم العربية[1].

لقد جعل الفراء أسلوب القرآن شغله الشاغل في العرض والتحليل والتنظير. فكان يستعرض الآيات ويورد القراءات ويستطلع وجوهها ويميز الجديد من غيره[2].

(1) النحو وكتب التفسير لإبراهيم عبد الله رفيدة 1 220

(2) معاني القرآن للفراء 1 199

وهو في ذلك لا يفرق بين القراءة المشهورة والشاذة[1].

كما اتخذ أبو عبيدة من القرآن حجة دامغة على أوجه الأدوات ولاسيما في الإطار اللغوي الذي يطبع تفسيره. وجعله في مقدمة المصادر[2].

ولم يخرج الأخفش عن هذا المنهج إذ وقف على النص القرآني مبينا قراءاته مستشهدا لها. وكثيرا ما احتج بالقرآن للمسائل النحوية العامة التي عرض لها في ثنايا تفسيره[3].

واتبع الزجاج خطى الأسلاف. فنظر إلى لغة القرآن بعين المحبة والإكبار فكانت الآيات مادة غنية لشرح النصوص. وحجة حاسمة لمادة البحث والمعالجة.

وورث اللاحقون هذا الاتجاه. ولكنهم لم يبلغوا شأو المتقدمين. ولم يجعلوا أسلوب القرآن الكريم مادة للاحتجاج. وإن كانوا يحاولون بين الحين والآخر. ويرغبون في الظهور بمظهر المنظرين. فأصبحت النصوص القرآنية لديهم اقرب إلى الدليل على وجه الآية المفسرة. والنظير الذي يشرح النظير ويقومه.

فالطبري اقتفى أثر الفراء. وسار على نهجه. وأضاف إلى نصوصه ملحقا. بوجوه القراءات وصرح في أكثر من موضع. أن هذا الأسلوب نزل بأفصح كلام العرب إلا

---

(1) المرجع السابق: 1 479.

(2) المجاز لأبي عبيدة: 1 11.

(3) معاني القرآن للأخفش: 293.

أنه كان يدور في فلك الإستدلال والاختيار، وتبين معان الألفاظ في نصوصه المختلفة[1].

أما الزمخشري فقد جعل القرآن وحدة لغوية متكاتفة يشهد بعضها لبعض في كل المواطن والمواقف النحوية منها والدلالية، والجمالية والفكرية، نفيا وإثباتا، فأورد القراءات، كما أورد لكل معنى شبهه ونظيره، في الأصل والفرع، حتى يخيل إلى القارىء أن النصوص عنده جاءت مترابطة، ومن ذلك ما أورده للتدليل على معنى من التبيينية[2] في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [3] وقولـــه تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً﴾ [4].

أما أبو حيان فقد جعل بحره محفولا بالقراءات بمختلف مستوياتها إذ ورث الروايات وجمعها وسمى معظم أصحابها، ودافع عن أهمية هذا المصدر، جاعلا إياه حجر الزاوية في المعالجة والمناقشة وتحرير الأحكام والتوجيهات.

ويكفي أن نورد مثالا توضيحيا على ذلك حين قال[5] في معنى "في" للوعاء حقيقة أو مجازا. وزيد للمصاحبة، وللتعليل، وللمقايسة، ولمرافقة "على" والباء مثل ذلـــك: زيد في المسجد ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [6] ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُـــمْ﴾ [7]

---

(1) الطبري: 136/3.
(2) الكشاف: 441/1.
(3) آل عمران: 172.
(4) الفتح: 29.
(5) البحر المحيط: 33/1.
(6) البقرة: 179.
(7) الأعراف: 38.

﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ﴾[1] ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[2] ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[3]، ﴿ يذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾[4].

لقد جعل المفسرون آيات القرآن وقراءاته قبلتهم في البحث والتحري، ولكنهم اتخذوا منها في الوقت نفسه دليلا ومرشدا إلى معانيها، وقدموا هذا الدليل على سواه من النصوص المشهورة والشاذة وماثلوا بين الوجوه، وربطوا بين أصحابها من العرب، وأظهروا أحيانا ما تحتمله من وجوه بوحي تعابيرهم الكلامية وطرائقهم.

ونظرا لما للنص القرآني من فصاحة وبيان لجأ الثعالبي إلى توثيق كلامه مقتفيا أثر أسلافه وفق منهج يقوم على:

أ- ذكر اللفظة ومعناها ثم توثيق ذلك بالقرآن الكريم نحو قوله[5]. النسي في كلام العرب: الشيء الحقير، ومنه قوله تعالى ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ [6].

ومنه قوله[7]: الحين: المدة الطويلة من الدهر نحو قوله تعالى : ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾[8] وفيه أيضا قوله: أتى: معناه قضى، ومنه قوله تعالى: (أتى أمر الله) وفيه

---

(1) النور: 14.

(2) يونس: 64.

(3) طه: 71.

(4) الشورى: 11.

(5) الجواهر الحسان: 11/3، ينظر اللسان (نسى) 621/3.

(6) مريم: 23.

(7) الجواهر الحسان: 71/1، ينظر: اللسان: (حين) 771/1.

(8) إبراهيم: 25.

أيضا[1] قوله: والصعيد في اللغة وجه الأرض ومنه قوله تعالى: ﴿فتيمَّمُوا صعيدًا طيِّبًا﴾[2] وقوله[3]: العدل بمعنى القسط ومنه قوله تعالى: ﴿إنَّ اللَّه يُحبُّ الْمُقْسطين﴾[4].

هذا ولم يقتصر الثعالبي على ألفاظ القرآن الكريم، بل تعدى ذلك إلى القراءات القرآنية، المتواترة منها والشاذة وكل ذلك من أجل توثيق جوانب لغوية كتوثيق بناء صيغة معينة، نحو قوله: وقرأ جمهور الناس (جزاءً لمنْ كان كُفر)[5] مبنيا للمفعول، وقرء شاذا كفر مبنيا للفاعل[6]. وكما جاء في قوله تعالى: (مدكر)[7] قال المفسر[8]: ومدكر أصله مدتكر أبدلوا من التاء دالا ثم أدغموا التاء في الدال وهذه قراءة الناس. قال ابو حاتم رويت عن النبيﷺ بإسناد صحيح ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تخسرُوا الْميزان﴾[9].

قال المفسر[10]: وقرأ بلال بن أبي بردة (تخسروا) بفتح التاء وكسر السين من خسر. ويقال خسر وأخسر بمعنى كجبر وأجبر.

---

(1) الجواهر الحسان: 1/448. ينظر اللسان: (صعد) 2/441.

(2) النساء: 43.

(3) الجواهر الحسان: 1/503. ينظر اللسان: (قسط) 3/85.

(4) المائدة: 42.

(5) القمر: 14

(6) الجواهر الحسان: 4/322. ينظر الحجة في القراءات 2/320.

(7) القمر: 16.

(8) الجواهر الحسان: 4/322. ينظر الحجة 2/182.

(9) الرحمن: 9.

(10) الجواهر الحسان: 4/313. ينظر الحجة في علل القراءات السبع للفارسي 220.

وقد يذكر القراءة من أجل توثيق دلالة أسلوب كما ورد في قوله تعالى: ﴿قال أحدُهُما إنّي أرانِي أعْصِرُ خمْرًا ﴾[1] قال المفسر[2]: قيل فيه إنه سمي العنب خمرا بالمآل. وقيل هي لغة أزد عمان. يسمون العنب خمرا. وفي قراءة أبي وابن مسعود "أعصر عنبا".

وكذلك قوله تعالى : ﴿وإخْوانُهُمْ يمُدُّونَهُمْ في الغيّ﴾[3] قال المفسر[4]: وقرأ جميع السبعة غير نافع (يمدوهم) من مددت. وقرأ نافع (يمدهم) من أمددت قال الجمهور: هما بمعنى واحد إلا أن المستعمل في المحبوب أمد. والمستعمل في المكروه مدّ. فقراءة الجماعة جارية على المنهاج المستعمل. وأما قراءة نافع فهي مقيد بقوله: (في الغي).

ومن الملاحظات التي يمكن الوقوف عليها في هذا الجانب. أن الثعالبي لم يكن مولعا بتتبع أوجه القراءات إلا ما كان ذا فائدة في كشف معاني النص القرآني. التزاما منه بما أراد في مقدمة تفسير من إيجاز واختصار.

ب- التوثيق بالحديث النبوي الشريف:

مع أن أحاديث النبي ﷺ تمثل نموذجا من النثر الأدبي الراقي الذي ينبغي أن يوضع في مكانه المناسب من الاستشهاد به في القضايا اللغوية. نجد الخلاف دائرا حوله.

---

(1) يوسف: 36.

(2) الجواهر الحسان: 2/321.

(3) الأعراف: 202.

(4) الجواهر الحسان: 2/102.

ويبدو أن الرعيل الأول لم يستشهدوا به في اللغة، ولم يستندوا إليه في إثبات ألفاظها[1].

والسبب في ذلك يرجع لرواية الحديث بالمعنى، ولتداول الأعاجم لأحاديث الرسول ﷺ [2].

والذي ينبغي أن أشير إليه، هو أن هؤلاء القدماء الذين ينسب إليهم رفضهم الاستشهاد بالحديث لم يثيروا هذه المسألة، ولم يناقشوا مبدأ الاستشهاد بالحديث النبوي، وبالتالي لم يصرحوا برفض الاستشهاد به، وإنما هو استنتاج من المتأخرين، الذين لاحظوا خطأ، أن القدامى لم يستشهدوا بالحديث النبوي، فبنوا على ذلك أنهم يرفضون الاستشهاد به[3].

وبالرجوع إلى مؤلفات الأقدمين نجد ما يدحض هذه المقولة، حيث تراهم يستشهدون ويوثقون ألفاظهم بالحديث النبوي الشريف كالخليل[4]، وسيبويه[5]، وابن دريد[6]، وابن فارس[7]، والجوهري[8]، وابن سيده[9].

---

(1) عصور الاحتجاج في النحو العربي: 157، والبحث اللغوي عند العرب: 32.

(2) خزانة الأدب للبغدادي: 5/1.

(3) البحث اللغوي عند العرب لأحمد مختار عمر: 33.

(4) العين للخليل بن أحمد: 70/1، 72.

(5) الكتاب: 74/1، 327، و 32/2، 80، 393، و 268/3، و 116/4.

(6) الجمهرة لابن دريد: 16/1، 18، 31، 33، 44.

(7) مقاييس اللغة لابن فارس: 14/1، 16، 41، 44، 55.

(8) الصحاح للجوهري: 41/1، 44، 50، 51، 53.

(9) المخصص لابن سيده: 22/1، 40، 77، 108، 160.

ومن ذلك يمكن القول بأن المتأخرين قد جانبهم الصواب فيما ذهبوا إليه من رفض القدماء الاستشهاد بالحديث.

ويظهر أن أبا حيان صاحب شيوع هذه الفكرة الخاطئة هو المروج لها والمنادي بها[1].

فقد اهتم به الزمخشري وأورد عددا من النصوص، شرح فيها وجوه القرآن الكريم واستشهد لها، ومن ذلك استشهاده لمعنى التمني في "لو" من قوله تعالى:﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ ﴾ [2] بقوله عليه الصلاة والسلام للمغيرة، "لو نظرت إليها"[3].

ولم يكد الرازي يختلف عنه في ذلك، إذ بين به بعض الوجوه واستدل للأخرى، ولكنه لم يصل به إلى ما وصل سلفه، ومن الأمثلة على ذلك استشهاده لوقوع "انما" للحصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ [4] بقوله عليه السلام "إنما الربا في النسيئة"[5].

وتابع الثعالبي هذا النهج لكنه توسع به وأكثر من نقله عن صحيح البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم، واستعان به بل جعله مجال الكلام اللغوي في إطار النص المفسر.

---

(1) الاقتراح للسيوطي: 18.

(2) السجدة: 12.

(3) سنن النسائي: 57/6 (كتاب النكاح) رقم: 2120.

(4) التوبة: 60.

(5) صحيح مسلم: 269 باب الربا رقم: 1113.

كما جعل من كلام رسول الله ﷺ شواهد على المعاني واتسم منهجه في ذلك بـــ:

ـ ذكر اللفظة ومعناها مع توثيقها بالحديث النبوي الشريف. ومما ورد في تفسيره على سبيل المثال استشهاده لمعنى كلمة حاص في قوله تعالى: ﴿محيصا﴾[1] قال المفسر[2]: من حاص إذا راغ ونفر. بالحديث النبوي: "فحاصوا حيْصة حمر الوحش"[3] أي نفروا.

وفيه أيضا: قوله تعالى ﴿وعنتْ الْوُجُوهُ﴾[4] قال المفسر[5]: معناه ذلت وخضعت والعاني الأسير: وفي الحديث "هُنّ عوانٌ عندكم"[6].

ومنه قوله تعالى: ﴿ونزعْنا ما في صُدُورهمْ منْ غلٍّ﴾[7] قال المفسر[8]: الغل: الحقد. ومنه في الحديث قوله ﷺ "الغل على باب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين" والغل. الحقد.

وقد يذكر الحديث من أجل توثيق جانب دلالي. نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وإمّا ينزغنّك منْ الشّيْطان نزْغٌ فاسْتعذْ بالله إنّهُ سميعٌ عليمٌ﴾[9].

1) من قوله تعالى: ﴿ولا يجدون عنها محيصا﴾ النساء 121

2) جوهر الحسان 1 495. ينظر اللسان (حص) 3 444.

3) رواه البخاري في صحيحه. كتاب بدء الوحي حديث رقم 7. 1 10

4) طه 111

5) جوهر الحسان 3 63. ينظر اللسان (عنت) 2 895.

6) رواه الترمذي في سننه حديث رقم 1163. 3 467. باب ما جاء في حق المرأة على زوجها.

7) الأعراف 43

8) الجواهر الحسان 2 27. ينظر اللسان (غل) 2 1008

9) الأعراف 200

قال المفسر[1]: هذه الآية وصية من الله سبحانه لنبيه تعم أمته. والنزغ: حركة فيها فساد. وقلما تستعمل إلا في فعل الشيطان لأن حركته مسرعة مفسدة. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يشر أحدكم على أخيه بالسلاح. لا ينزغ الشيطان في يده"[2].

وقد تعدى الاستشهاد بالحديث النبوي إلى أقوال الصحابة رضوان الله عليهم. ومن ذلك ما أورده في قوله تعالى: ﴿اهْدِنا الصِّراط الْمُستقيم﴾[3].

قال المفسر[4]: والصراط في اللغة: الطريق الواضح. واختلف المفسرون في المعنى الذي استعير له الصراط في هذا الموضع. فقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه" الصراط المستقيم" هنا القرآن.

ومنه قوله تعالى: ﴿ولباسُ التَّقْوى ذلك خيْرٌ﴾[5].

قال المفسر[6]: ولباس التقوى هو في العبد آية. قال عثمان بن عفان وهو على المنبر: لباس التقوى هو السمت الحسن في الوجه.

جـ- التوثيق بالشاهد الشعري:

احتل الشعر في كتب المفسرين منزلة هامة. لا تقل كثيرا عن القرآن. حيث بـــدا

---

(1) الجواهر الحسان: 2/100. ينظر اللسان: (نزغ) 3/716.

(2) رواه الديلمي في الفردوس حديث رقم: 7663. 5/117.

(3) الفاتحة: 6.

(4) الجواهر الحسان: 1/39. ينظر اللسان: (صراط) 2/430.

(5) الأعراف: 26.

(6) الجواهر الحسان: 2/17.

لهم مادة غنية وموردا واسعا يرجع إليه في الاحتجاج والتوضيح والتدليل وقد كان لهم في ذلك مذاهب مختلفة تبعا لأسلوب كل منهم، وغايته والمرحلة التي أنشأ فيها تفسيره، إذ كان بعضهم يكثر من الاعتماد عليه، وبعضهم يقتصد والآخر يستأنس به.

فقد جعله الفراء مصدرا أساسيا في بيان المعاني، ومرتكزا في معالجة المسائل اللغوية، فكان يورد شواهد عقب الآيات، وفي أثنائها تقوية لما يقوله ويقرره[1].

كما اتكأ أبو عبيدة على الشعر[2]، وجعله في مقدمة ما يحتج به للغة القرآن، وكان يستظهر منه الشواهد المتعددة، ويعالج بإسهاب بعض مسائله من دون أن يبتعد عن النصر المفسر.

وتصل هذه الشواهد إلى الطبري ويضيف إليها موسعا إطار هذا الأسلوب في معالجته المطولة، حتى كاد يوازي بينه وبين القرآن، إلا أنها لم تكن تخرج عن مجال النص بصورة عامة، فكان يورد الشعر عقب الآية، ثم يشرحه ويقرن ذلك بوجه الآية تمهيدا للحكم فيها[3].

واستعان الزمخشري بهذا الأسلوب، ولكن لم يبلغ به إلى مرتبة القرآن إذ اقتصر في تفسيره على ابيات لتأييد أقواله والاستدلال لما يراه. والزمخشري يكـــرر أحيانا شواهده في المواضع المتماثلة والمتشابهة ولا ينسب معظمها. وكانت أبياته تكرارا عـــن السابقين[4]، ولم يبذل أدنى جهد في نسبة ما جعل منها.

---

(1) معاني القرآن للفراء: 424/1، 339، 390، 42، و 103/2، 50، 54.

(2) المجاز: 52/1، 91، 36، 58، و 64/2، 186، 157، ... الخ.

(3) الطبري: 81/1، 208، 159/2، 46/7، و 313/7، ... الخ.

(4) الكشاف: 578/1، 415/2، 45/3، 286/4.

ولم يخرج الثعالبي عن هذا الإطار في تفسيره حيث وثق معاني بعض الألفاظ بما حفظ من الشعر العربي. فجاء منهجه متكأ على من سبقه حيث تراه. يذكر اللفظة ومعناها ويعقب عليها بالبيت الشعري ومن ذلك: استشهاد على قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [1].

قال المفسر[2] الصراط في اللغة: الطريق الواضح، قال جرير:

أمير المؤمنين على صراط ❁ إذا اعوج الموارد مستقيم[3].

ومنه ما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [4] قال المفسر: وفي قراءة ابن كثير (آتيتم) بمعنى فعلتم ومنه قول زهير[5]:

وما كان من خير أتوه فإنما ❁ توارثه آباء آبائهم قبل

ومنه أيضا قوله: (وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ)[6] .

قال المفسر: وأن تبسل معناه تسلم وتجزى. ومنه قول الشنفرى[7]:

هنالك لا أرجو حياة تسرني ❁ سمير الليالي مبسلا بالجرائر

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [8]

---

(1) الفاتحة: 6.

(2) الجواهر الحسان: 39/1، ينظر اللسان (سرط) 420/2.

(3) الديوان: 118

(4) البقرة: 233، الجواهر الحسان: 219/1.

(5) الديوان: 148.

(6) الأنعام: 70، الجواهر الحسان: 636/1.

(7) الديوان: 189.

(8) يونس: 7، الجواهر الحسان 226/2.

قال المفسر: يرجون في هذه الآية بمعنى يخافون ومن ذلك قول أبي ذؤيب[1]:

إذا لسعته النمل لم يرج لسعها ❁ وخالفها في بيت نوب عوامل

ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [2].

قال المفسر: والتحية مأخوذة من تمني الحياة للإنسان والدعاء بها. يقال حياة ويحييه ومنه قول زهير بن جناب:

من كل ما نال الفتى ❁ قد نلته إلا التحية

يريد دعاء الناس للملوك بالحياة[3].

وفيه أيضا قال تعالى: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [4].

قال المفسر: (وأصب) مأخوذ من الصبوة وهي أفعال الصبا ومن ذلك قول دريد بن الصمة[5].

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه ❁ فلما علاه قال للباطل أبعد

وفيه أيضا في قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [6] قال المفسر: وحنانا بمعنى تعظيما ومنه قول النابغة[7]:

---

(1) الديوان: 117.

(2) يونس: 10

(3) الجواهر الحسان: 228/2.

(4) يوسف: 33، الجواهر الحسان: 320/2.

(5) الديوان: 128.

(6) مريم: 13، الجواهر الحسان: 8/3.

(7) الديوان: 150.

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا ❁ حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وفيه أيضا: قال تعالى: ﴿وَعَنَتْ الْوُجُوهُ﴾ [1].

قال المفسر: معناه ذلت وخضعت قال أمية بن أبي الصلت[2]

مليك على عرض السماء مهيمن ❁ لعزته تعنوا الوجوه وتسجد

ومنه قوله تعالى: ﴿يَجْأَرُونَ﴾ [3] قال المفسر معناه يستغيثون بصياح كصياح البقر. ومنه قول الأعشى[4]:

يراوح من صلوات المليـــــــــــك طورا سجودا وطورا جؤورا

وفيه قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ [5] الآية.

قال المفسر: (يسخر) معناه يستهزئ وقد يكون ذلك المستهزأ به خير من الساخر. والقوم في كلام العرب واقع على الذكران وهو من أسماء الجمع ومن هذا قول زهير[6]:

وما أدري وسوف أخال أدري ❁ أقوم آل حصن أم نساء

ومنه في قوله تعالى: ﴿ يَتَنازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾[7].

---

(1) طه: 111. الجواهر الحسان: 3 63.

(2) الديوان: 270.

(3) المؤمنون: 64. الجواهر الحسان: 3 154.

(4) الديوان: 122.

(5) الحجرات: 11. الجواهر الحسان. 4/257.

(6) الديوان: 212

(7) الطور: 23. الجواهر الحسان: 4/296.

قال المفسر: (يتنازعون) معناه يتعاطون ومنه قول الأخطل[1]:

نازعته طيب الراح الشمول وقد ❁ صاح الدجاج وحانت وقعة الساري

وفيه أيضا قوله تعالى: ﴿أَزِفَتْ الآزِفَةُ﴾ [2].

قال المفسر: معناه قرب جدا، ومنه قول كعب بن زهير[3]:

بان الشباب وءاها الشيب قد أزفا ❁ ولا أرى الشباب ذهب خلفا

وقد يستشهد بالبيت الشعري لتوثيق دلالة معينة ومن ذلك استشهاده على قوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [4] قال المفسر[5]: وعاد في كلام العرب على وجهين:

أحدهما عاد الشيء إلى حال قد كان فيها قبل ذلك، وهي على هذا الوجه لا تتعدى فإن عديت فبحرف ومنه قول الشاعر:

ألا ليت الشباب جديد ❁ وعمرا تولى يا بثينة يعود[6]

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [7].

والوجه الثاني أن تكون بمعنى صار وعاملة عملها ولا تتضمن أن الحال قد كانت متقدمة، ومنه قول الشاعر:

---

(1) الديوان: 213.

(2) النجم: 57، الجواهر الحسان: 317/4.

(3) الديوان: 127.

(4) الأعراف: 88.

(5) الجواهر الحسان: 49/2 50 .

(6) الديوان: 128.

(7) الأنعام: 28.

تلك المكارم لاقبعان من لبن ❁ شيبا بماء فعاد أبعد أبوالا[1]

2 ــ ذكر الأسباب المؤدية إلى قول الشعر: نحو ما جاء في قوله تعالى:﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [2] قال المفسر: الملائكة تسمى جنا لاستنارها، قال الأعشى في ذكر سليمان[3]:

وسخر من جن الملائك تسعة ❁ قياما لديه يعملون لا أجر

وفي قوله تعالى: ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [4] قال المفسر: السواء من كل شيء الوسط.

قال حسان[5] بن ثابت في رثاء النبي ﷺ.

يا ويح أنصار النبي ورهطه ❁ بعد المغيب في سواء الملحد

3 ــ ذكر أسماء الشعراء:

أغلب الأبيات الواردة في التفسير معزوة لأصحابها، وهم من الشعراء الذين يعتد بحجيتهم، سواء كانوا من الجاهلين كزهير بن ابي سلمى 219/1، أو الشنفرى 636/1، أوالنابغة الذبياني 8/3، أو الأعشى 154/3، وأمثالهم.

أم كانوا من المخضرمين كحسان بن ثابت 123/1.

أم من الإسلاميين كجرير 219/1.

---

(1) جمهرة أشعار العرب 224.

(2) الصافات 158.

(3) الديوان: 117

(4) الصافات 15-، الجواهر الحسان: 123/1.

(5) الديوان: 128.

أما فيما يتعلق بالأبيات غير المعزوه فمردها إلى شهرة القائل أم الاعتماد في روايتها على الشيوخ الثقاة[1].

ومما تقدم يمكن ملاحظة الآتي:

لقد أيقن رجال التفسير ومنهم الثعالبي أن الشعر ديوان العرب وأن القرآن نزل بلغته. فانطلقوا إليه يكشفون الوجوه القرآنية. ويعربون به عن مسالكها الخفية. حتى إذا تكاثرت الأمثلة وتضافرت نماذج الأسلوبين راح المتقدمون ينظرون للظواهر اللغوية. ويجعلونه حجة قاطعة في بناء القاعدة. ثم تابع المتأخرون هذا النهج مع اختلاف الحاجة وتغير ظروف التأليف.

لقد اعتمدوا جميعا على اختلاف مواقعهم أشعار الجاهلين والمخضرمين والإسلاميين والأمويين. وتوسعوا في هذا المصدر فلم يتقيدوا بضوابط العلماء المعروفة في أصحابه. والقبائل التي ينحدرون منها.

أما فيما يتعلق بمسألة نسبة الأشعار إلى قائليها. فقد جاء كثير من أشعارهم غير منسوب. وفي ذلك خروج على ما قرره العلماء. لأن الشاهد غير المنسوب كالمصنوع أو مشكوك في صحته. ويبدو ان الفراء كان صاحب الأثر الأكبر في هذا المجال. وقد سار على منواله كثير من المفسرين ومنهم الثعالبي حيث وجدناه لا ينسب بعض الأبيات إلى أصحابها ولم يبذل جهدا يذكر في نسبة هذه الأبيات إلا أن ذلك يمكن أن يشفع له لأنه مشغول بالتفسير والمعالجة ولغة القرآن التي أغرم بها. وهو يعتمد في كثير من هذا الشعر على ما أنشده إياه بعض العلماء.

---

(1) البحث اللغوي عند العرب: 40.

د ـ التوثيق بأقوال العرب:

لقد كان لأقوال العرب عند المفسرين شأن لا يقل عن الشعر، بل هما أسلوبان متكاملان، لا غنى لأحدهما عن الآخر. إلى أن اعتمادهم على النثر لم يكن في مستوى الشعر ومادته، وقد تميز في تفاسيرهم بنسبة بعضه إلى أصحابه، ولا سيما في الأبنية والأحكام، وبتوضيح مسالكه وقوالبه فضلا عن النصوص المروية، ويجعله في معظم الأحيان شاهدا إضافيا على النصوص بعد الآية والحديث والشعر.

وكان هؤلاء الرجال يقرنون عباراتهم بوجوه التنزيل ومسالك الشعر بقولهم: "والعرب تجعل" والعرب تقول " وقد قالت العرب".

"ومن شأن العرب" . و"للعرب في"[1]. وغير ذلك من الكلمات التي يطلق فيها القول ولا يقيده معتمدين في الغالب على ما رووه عن الأعراب وقد وصلت هذه الجهود إلى الطبري فتقبلها بصدر رحب، وزاد في تفسيره أكثر مما نقلوه وسمعوه وتمثلوه، فجاءت استدلالاته أشبه بالأمثلة المصنوعة ولا يلتفت إلى مسألة النسبة إلا نادرا[2].

---

(1) معاني القرآن للفراء: 1/ 8، 19، 65، 350، 414، و 2/ 29، 267، 312.
- والمجاز لأبي عبيدة: 1/ 157، و 2/ 45، 56، 58.
- ومعاني القرآن للأخفش: 164، 182، 305.
- ومعاني القرآن للزجاج: 1/ 11، 54، 91.

(2) ينظر: الطبري 1/ 78، و 2/ 600، و 3/ 276، و 4/ 27، و 5/ 185، و 6/ 46.

كما ردد المتأخرون معظم هذه الأقوال، وأضافوا إليها أيضا مستدلين بها مستأنسين بها في الوجوه والأحكام كما فعل الزمخشري[1].

ولم يكد الثعالبي يختلف في ذلك عن سابقيه، إذ بين به بعض الوجوه واستدل للأخرى، ولكنه لم يصل به إلى ما وصل سلفه ولبيان ذلك أسوق بعض الأمثلة على ذلك:

قال تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[2] قال المفسر[3]: الدين في كلام العرب على أنحاء. كما استشهد على قوله تعالى: ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [4] بقوله[5]: أي بئس العطاء المعطى لهم، وهو العذاب، والرفد في كلام العرب العطية. كما استدل على قوله تعالى: ﴿وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾[6] بقوله[7]: مخلدون لا تكبر لهم سن أي لا يحولون من حالة إلى أخرى، والعرب تقول للذي كبر ولم يشب أنه المخلد.

ومما تقدم يمكن القول بأن المفسرين منهم الثعالبي اعتمدوا في الغالب على أقوال العرب في مجال الاستدلال لبعض الوجوه والتخريجات وهي قليلة نادرة وخلافية، كما

---

(1) الكشاف: 47/1، 85، و 75/2، 307، 308، 100/3، و 100/3، و65/4.

(2) الفاتحة: 5.

(3) الجواهر الحسان: 295/2.

(4) هود: 99.

(5) الجواهر الحسان: 295/2.

(6) الواقعة: 17.

(7) الجواهر الحسان: 346/4.

أنها وردت في كتب المتأخرين، الذين كانت جهودهم خارج دائرة الاحتجاج. بل في التفسير والتوجيه.

أما من حيث نسبتها فمعظمها يرجع إلى الفراء الذي توسع في نقلها وأخذ بكثير منها، وقد تابع اللاحقون ومنهم الثعالبي نهجه وأخذوها عنه ولم ينسبوها إلى أصحابها.

وعليه فالتوثيق اللغوي في "الجواهر الحسان" يحتل مكانة بارزة فهو في تفسيره يستلهم روح العربية، ونهج العرب في كلامها، وأساليب مخاطبتها، ويجعل الشواهد اللغوية مصدرا لمعرفة طريقة العرب في كلامها ومعاني ألفاظ القرآن الكريم.

مراجع البحث

1-الإقتراح للسيوطي: تحقيق، د/أحمد قاسم، القاهرة 1976.

2-تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992.

3- البحر المحيط: ابو حيان الأندلسي، مطبعة السعادة، ط1، 1828هـ.

4- البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر: مطابع سجل العرب القاهرة، 1971.

5- جمهرة اللغة لابن دريد: منشورات مكتبة المثنى بغداد،(د-ت).

6-الحجة في علل القراءات السبعة للفارسي، تحقيقك علي النجار، ود/عبد الفتاح شلبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1983.

7-الجواهر الحسان في تفسير القرآن: عبد الرحمن الثعالبي، تحقيق: د/عمار طالبي، منشورات المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985.

8-خزانة الأدب للبغدادي، الطبعة الأولى بيروت، (د-ت).

9-الكتاب لسيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، ط1، 1991.

10-الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التاويل، الزمخشري، دار المعرفة بيروت، (د-ت).

11-لسان العرب، ابن منظور، تقديم عبد الله العليلي، بيروت، (د-ت).
12-معاني القرآن للاخفش، تحقيق:فائز فارس، الكويت، 1979.
13-معاني القرآن للفراء، تحقيق محمد علي النجار وآخرون، مصر 1972.
14-معاني القرآن للزجاج، تحقيق د/ عبد الله الجليل شلبي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، (د-ت).
15-المجاز لأبي عبيدة، تعليق: فؤاد السركيني، مكتبة الخانجي القاهرة، (د-ت).
16-مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، منشورات دار الفكر، 1979.
17- المخصص لابن سيدة، مطبعة بولاق، 1318هـ.
18-النحو وكتب التفسير، ابراهيم عبد الله رفيدة، ليبيا، 1981.
19- العين للخليل بن أحمد، تحقيق: د/ عبد اله درويش، مطبعة المعاني بغداد 1967.
20-صحيح البخاري، مطبوعات محمد علي صبيح، مصر، (د-ت).
21-صحيح مسلم، مطبوعات محمد علي صبيح، مصر، (د-ت).
22-ديوان زهير بن أبي سلمى، دار صادر بيروت، (د-ت).
23-ديوان جرير، شرح محمد ابن حبيب، دار المعارف القاهرة.
24-ديوان الشنفرة، دار صادر بيروت، (د-ت).
25-ديوان حسان بن ثابت، شرح وتقديم عبدو مهنة دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 (د-ت).
26-ديوان كعب بن زهير، دار صادر بيروت، 1964.
27-ديوان أمية بن أبي السلت، دار صادر بيروت، (د-ت)
28-ديوان دريد بن الصمة، دار صادر بيروت، (د-ت).